العربي السفير
جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان

الخميس ٤ تشرين الأول ٢٠١٢ ـ الموافق ١٨ ذي القعدة ١٤٣٣ هـ ـ العدد ١٢٣٠٠

AS-SAFIR Arabic political daily – October 4, 2012 N° 12300

17 | 1

مفهوم «المجتمع المدني» يشبه الوجبات السريعة. وهو انتقائي، لا يستدرج العقل إلى التأمل والتجريب والحوار. وأما في استخداماته السورية، فقد أصبح المفهوم ايديولوجيا مضطربة وغامضة.
2

تعيين الميادين الأساسية للعدالة الاجتماعية في مصر. وسؤال عن شيخوخة المطاوعة، شرطة «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في السعودية، كما تجربة لمدن مخصصة للنساء هناك.
3

أمانة عاصمة بغداد لا تحب الفوضى، لذا هجمت على شارع المتنبي، شارع الكتب الرئيسي في العاصمة، وسحقت البسطات، بينما كان الشباب يطلقون حملة «أنا عراقي... انا أقرأ».
4

الصراع في حوض النيل

تأتي حوالي ٨٦ في المئة من مياه نهر النيل من الهضبة الاثيوبية (٥٩ في المئة من النيل الأزرق و١٤ في المئة من نهر السوباط و١٣ في المئة من نهر عطبرة)، بينما تساهم البحيرات الاستوائية بحوالي ١٤ في المئة فقط من مياه نهر النيل. وتُقدّر كميات مياه النهر التي تصل أسوان سنوياً بحوالي ٨٤ مليار متر مكعب، وهذا يجعل نهر النيل من أضعف وأقل الأنهار مياهاً في العالم مقارنةً بمساحة حوضه وطوله وعدد دوله المتشاطئة. وتساوي هذه المياه ٢ في المئة من نهر الأمازون، و٦ في المئة من نهر الكونغو، و١٢ في المئة من نهر اليانغستي، و١٧ في المئة من نهر النيجر، و٢٦ في المئة من نهر الزمبيزي. إنّ هذا الضعف الحاد في وارد المياه السنوي يمثّل المشكلة الكبرى لنهر النيل ودوله وشعوبه، خصوصاً مع الزيادة المضطردة للسكان والاحتياجات المائية المتنامية لهم، ومع التغييرات المناخية والتدهور البيئي في دول الحوض.

وإضافة، فالمشكلة الأساسية في حوض النيل هي انّ مصر والسودان هما المستعملان الرئيسيان لمجمل مياه النهر الواردة إلى أسوان. فبمقتضى «اتفاقية مياه النيل» التي وقّعتها مصر والسودان عام ١٩٥٩، فإنّ نصيب مصر يبلغ ٥٥,٥ مليار متر مكعب، ويبلغ نصيب السودان ١٨,٥ مليار متر مكعب، بينما تتبخّر المليارات العشر المتبقية من بحيرة السد العالي. تُصرّ مصر والسودان على أنّ هذه الكميات هي حقها المكتسب، وأن هذا الحق غير قابل للتفاوض. على الجانب الآخر، تطالب بقية دول الحوض، وعلى رأسها اثيوبيا، بحقوق لها من مياه النهر تحت نظرية الانتفاع المنصف والمعقول.

وتنظم العلاقات النيلية «مبادرة حوض النيل» التي تضم تسع دول، انضمت اليها مؤخراً جمهورية جنوب السودان لتصبح الدولة العشرة، بعدما أجاز اجتماع كيغالي، الذي انعقد في تموز/يوليو الماضي، طلب العضوية الذي تقدمت به. وأما دول المبادرة فهي اثيوبيا ومصر والسودان وبوروندي ورواندا وكينيا وتنزانيا ويوغندا وجمهورية الكونغو الديمقراطية. واريتريا هي أيضاً من دول حوض النيل، حيث أن نهر «سيتيت»، وهو أحد روافد نهر «عطبرة»، ويشكّل جزءٌ منه الفاصل الحدودي بين اثيوبيا واريتريا، ويعبر جزءٌ منه الأراضي الاريترية. ونهر «عطبرة» هو أحد الروافد الرئيسية لنهر النيل. غير أن اريتريا ليست عضواً في «مبادرة حوض النيل» بل تحوز على صفة المراقب فقط.

نهر النيل هو أطول أنهار العالم، يجري لمسافة ٦٦٥٠ كيلومترا من بداية منابعه في دولتي بورندي ورواندا، حتّى مصبه في البحر الأبيض المتوسط. أحد روافده ـ النيل الأبيض – ينبع من ثاني أكبر بحيرة في العالم (بحيرة فكتوريا التي تبلغ مساحتها ٦٨٥٠٠ كيلومتر مربع). تقع على بعض روافد النهر أكبر المستنقعات في العالم (السُدّ بجنوب السودان ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع)، وأقدم وأكبر السدود في العالم (أسوان والسد العالي بمصر، وسنار وجبل اولياء والرصيص ومروى بالسودان، بالإضافة إلى سد النهضة أو الألفية الذي بدأت اثيوبيا في بنائه العام الماضي). اتفاقيات نهر النيل هي أقدم الاتفاقيات وأكثرها إثارةً للجدل بين القبول الكامل والرفض الكامل. ومعلوم أنه قامت على ضفاف النيل أقدم وأعرق الحضارات الانسانية، في مصر والسودان واثيوبيا وأوغندا.

أطول أنهار العالم: ٦٦٥٠ كيلومتراً

فكرة حوض النيل

تشكّلت أولى ملامح التعاون بين دول حوض النيل في منتصف الستينيات من القرن الماضي، إثر الارتفاع المفاجئ والكبير في بحيرة فكتوريا والذي نتجت عنه مشاكل عدّة في تنزانيا وأوغندا وكينيا. كانت هناك إرهاصات عديدة لهذا الارتفاع، وقد يكون من ضمن أسبابه وقوف مستنقعات جنوب السودان كعقبة في طريق انسياب النيل، أو قد يكون حجز السدّ العالي للمياه. لهذه الأسباب، فقد دعت دول البحيرات الاستوائية مصر والسودان واثيوبيا لمناقشة هذه المسألة، تحت مظلة برنامج المسح المائي للبحيرات الاستوائية الذي ساهمت الأمم المتحدة في تمويله وتسهيل إجراءاته. تواصلت لقاءات واجتماعات دول الحوض تحت عدّة مظلات لاحقة، من بينها «النيل الفنّي»، و«الأخوّة»، و«النيل لعام ٢٠٠٠».

وفي عام ١٩٩٧، برزت فكرة «مبادرة حوض النيل» والتي أخذت شكلها الرسمي في ٢٢ شباط/ فبراير عام ١٩٩٩ في مدينة دار السلام في تنزانيا، إثر توقيع وزراء المياه لدول الحوض بالأحرف الأولى على وقائع الاجتماع الذي أسّس لقيام مبادرة حوض النيل. وقد اتفق الوزراء على أن الهدف من المبادرة هو تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة من خلال الانتفاع المنصف والمنافع من موارد النيل المشتركة. وقد نجحت المبادرة في عدّة مجالات، من بينها إنشاء البنية التنظيمية للمنظمة (سكرتارية بمدينة عنتبي في أوغندا، ومكتب للنيل الشرقي بأديس أبابا، ومكتب لنيل البحيرات الاستوائية بمدينة كيغالي بدولة رواندا)، وفي تمويل عدد من المشاريع المشتركة. وبدأ العمل قبل عدّة أعوام في اتفاقية الإطار التعاوني لحوض النيل.

الصعوبات أمام التفاوض

منذ بداية المناقشات، واجهت مفاوضات اتفاقية الإطار التعاوني نقاط الخلاف نفسها التي تواجهها اليوم. فمصر والسودان يصران على استعمالاتهما وحقوقهما القائمة، وعلى أن الاتفاقيات التي عُقدت في الماضي ملزمةٌ لدول الحوض الأخرى، وتحديداً اتفاقية ١٩٢٩ التي أبرمتها بريطانيا مع مصر، نيابةً عن السودان وكينيا وأوغندا وتنجانيقا، التي كانت ضمن مستعمراتها في ذلك الحين. هذه الاتفاقية أعطت مصر حق النقض لأي مشاريع تقام على النيل قد تؤثر سلباً على كميات المياه التي تصل مصر، أو تعدّل وقت وصولها. وبينما تصرُّ مصر على إلزامية هذه الاتفاقية تحت نظرية توارث الاتفاقيات، ترفضها دول البحيرات الاستوائية باعتبار أنه تمّ التوقيع عليها أثناء الحقبة الاستعمارية ولا إلزامية لهذه الاتفاقية بعد نهاية هذه الحقبة.

تُصرُّ مصر والسودان أيضاً على مبدأ الإخطار المسبّق لأية مشروعات تنوي الدول النيلية الأخرى القيام بها، بينما ترفض تلك الدول هذا الطلب وتدّعي أن مصر والسودان لم يقوما بإخطارهم بأي مشاريع أقاماها على نهر النيل. وتطالب مصر والسودان بأن يتم أي تعديل لاتفاقية الإطار التعاوني بالإجماع أو الأغلبية التي تشمل مصر والسودان، بينما تصر الدول الأخرى على التعديل بالأغلبية العادية، شملت أم لم تشمل مصر والسودان. وهذه خلافاتٌ عميقة، زادت النزاعات القائمة أصلاً مزيداً من التعقيد والتأزم.

وقّعت خمس دول على اتفاقية الإطار التعاوني (تنزانيا وكينيا ويوغندا واثيوبيا ورواندا) في شهر أيار/مايو من العام ٢٠١٠. وقد انضمت إليها بوروندي في شباط/ فبراير عام ٢٠١١. وتحتاج الاتفاقية إلى تصديق ست دول (وهو ما لم يتم حتى الآن) علاوة على مصر للدخول حيز التنفيذ. عليه، فإن جنوب السودان ينضم إلى مبادرة حوض النيل في وقت حرج.

دول حوض نهر النيل

جنوب السودان

يقع حوالي ٢٠ في المئة من حوض النيل في جمهورية جنوب السودان، وهي الدولة الثانية مساحةً في الحوض بعد جمهورية السودان التي يقع فيها حوالي ٤٠ في المئة من الحوض. كما أن حوالي ٩٠ في المئة من جنوب السودان يقع داخل حوض النيل. وتقع المدن الرئيسية الثلاث في جنوب السودان ـ «جوبا» و«ملكال» و«واو» ـ على النيل الأبيض أو أحد روافده. وتلتقي معظم روافد النيل الأبيض فى دولة جنوب السودان. وهناك أيضاً يلتقي النيل الأبيض، الذي تأتي معظم مياهه من البحيرات الاستوائية، بنهر السوباط الذي يأتي من الهضبة الاثيوبية. كما أن قدراً كبيراً من المياه (يُقدّر بحوالي ٤٠ إلى ٥٠ مليار متر مكعب) يتبخّر ويتسرّب في مستنقعات جنوب السودان سنوياً.

يمكن تصنيف جمهورية جنوب السودان إذاً كدولة نيلية ذات اهتمامات ودور كبيرين في نهر النيل، أسوةً بمصر والسودان واثيوبيا. ويُتوقع أن يلعب جنوب السودان (إن قُدِّر له الاستقرار السياسي والأمني) دوراً كبيراً في مجريات الأمور في نهر النيل، خصوصاً بعد انضمامه إلى مبادرة حوض النيل. ويمكن تلخيص هذا الدور في الآتي:

أولاً: رغم التصريحات التي صدرت من عدد من القادة في دولة جنوب السودان لطمأنة مصر لجهة أن جنوب السودان سيحترم حقوق مصر التاريخية، ولن يقوم بالإضرار بها تحت أي ظرف، إلاّ أن كل المراقبين يتوقعون أن تنضمَّ جمهورية جنوب السودان إلى تحالف دول المنبع، وذلك بسبب العلاقات العرقية والجغرافية والتاريخية والثقافية والاقتصادية الوطيدة التي تربطها بدول البحيرات الاستوائية. بل يتوقع هؤلاء المراقبون أن تقف جمهورية جنوب السودان مع هذه الدول في نزاعاتها النيلية مع مصر والسودان.

ثانياً: يُتوقّع كذلك أن تنضم جمهورية جنوب السودان إلى اتفاقية الإطار التعاوني لحوض النيل. وفي هذا المجال، فإن انضمام دولة بوروندي إلى اتفاقية الإطار التعاوني في شهر شباط/ فبراير من العام ٢٠١١ كان عملاً استباقياً تمّ بعد أيام قلائل من إعلان نتيجة الاستفتاء التي أوضحت أن حوالي ٩٩ في المئة من شعب جنوب السودان صوتوا للانفصال. وسوف يقوّي هذا التوقّع من دخول الاتفاقية حيز التنفيذ حيث ستفقد الدول المتردّدة مثل بوروندي أية حقوق نقض كانت بحوزتها حول الاتفاقية قبل بروز دولة جنوب السودان وانضمامها للمبادرة.

ثالثاً: تشير الدراسات إلى إمكانية إضافة حوالي ٢٠ مليار متر مكعب إلى النيل الأبيض من مستنقعات جنوب السودان من خلال القنوات المقترحة والتي تشمل قناة جونقلي. وهذا يعطي جنوب السودان أهميّة ووضعيّة خاصة، لأن المستنقعات هي المصدر الوحيد لزيادة مياه النيل. يبقى السؤال عن الحوافز التي يمكن تقديمها لجنوب السودان ليوافق على إكمال قناة جونقلي أو على شق أية من القنوات. هذا بالطبع إذا سمحت الظروف الأمنية المتدهورة باستمرار في ولاية جونقلي بذلك، واذا تمّ إقناع المجموعات القبلية المحلية التي ستتأثر بالقناة، ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالبيئة والتي تعارض المشروع بشدّة.

رابعاً: على الرغم من أن مسألة اقتسام مياه النيل بين السودان وجنوب السودان ليست من القضايا العاجلة، مقارنةً بقضايا النفط والحدود، إلاّ ان هذه المسألة ستنال اهتماماً بمرور الزمن. فاحتياجات جنوب السودان الحالية من مياه النيل محدودة بسبب عدم وجود مشاريع ريّ أو كهرباء تأخذ من مياه النيل. لكن هذا الوضع سوف يتغير بمرور الزمن، والبدء بمشاريع السدود مثل سد «بيدين» (على بحر الجبل جنوب جوبا)، وإعادة تأهيل المشاريع المتعطّلة حالياً مثل «واو لتعليب الفاكهة» و«أنزارا الزراعي». من المؤكّد أن الاتفاق على اقتسام مياه النيل أثناء مفاوضات نيفاشا أو خلال الفترة الانتقالية كان سيكون أقل تعقيداً منه الآن. فالتفاوض بين دولتين أصعب كثيراً من التفاوض بين وحدتين داخل الدولة الواحدة. بالطبع سيزيد الوضعَ تعقيداً التحالفاتُ والتكتلات داخل دول حوض النيل، والتوقّعات أن ينضم جنوب السودان إلى دول المنبع في نزاعاتها الحادة مع مصر والسودان.

سلمان محمد أحمد سلمان

استاذ وخبير مختص بمسألة المياه من السودان

الغرافيتي سياسي في مصر وتجريدي في المغرب

باطن سور الثانوية نظيف، لكنه من الخارج مملوء بالرسوم الاحتجاجية والكتابات وأسماء التلميذات والمشاعر تجاههن. الشبان يرسمون وإدارة المؤسسة التعليمية تبيض الجدران لإخفاء الأوساخ وعلامات الحب والغضب. وقد تزايدت عملية الصبغ والتبييض في الفضاء العام منذ إحراق البوعزيزي لنفسه في سيدي بوزيد. في أماكن كثيرة تعب الذين ينظفون الجدران ولم يتعب الذين يرسمون عليها. في نهاية المطاف صارت الكثير من الشوارع تقدم صنفين من المعارض: الصنف الأول من هذا الغرافيتي عبارة عن شعارات سياسية عنيفة، كتبت في الليل وعلى عجل، تندد بالفساد وبأشخاص لهم سلطة، وغالبا تتم إزالتها بسرعة في الصباح، خاصة في الصحراء والريف (شمال المغرب حيث انطلقت ثورة عبد الكريم الخطابي). الصنف الثاني غرافيتي غير سياسي بشكل مباشر، يتم التسامح معه، وفيه زوايا حادة، أشكال مائعة تتجاوز التعبيرية نحو التجريد، خطوط وشظايا أشكال، اندفاع تجريدي يتنكر لكل أشكال الكبح. رسوم تنبع من خيال جامح لجيل كانت الرسوم المتحركة مصدر ثقافته الوحيد. خيال يحتفي باللامعنى. مع تكرار كلمات بالإنجليزية غالبا، تلعن العالم.

هذا «رسم» ثائر على معايير الذوق التقليدي. أنجزه شبان من الطبقة الوسطى، يسكنون حيا محترما وشعرهم مدهون بـ«الجيل»، يحتجون على قضايا لانهائية، منها ديكتاتورية الذوق السليم. توجد رغبة جامحة لتخليد هذا الاحتجاج الغامض.

يحظى هذا الفن التجريدي بالدعم، إذ تتقدم جمعيات معترف بها رسميا بطلب للسلطة لتمول شراء الأصباغ، ثم يتولى فنانون إنجاز غرافيتي غير مسيس، وتأتي كاميرا التلفزة لتصور هذا الإنجاز. بهذا الشكل يدوم الغرافيتي المغربي ولا يصير مستفزا. ولأنه تجريدي، فهو مقطوع الصلة بالتعبير عن سخونة اللحظة السياسية.

في مصر، الوضع مختلف، الغرافيتي لصيق بالحدث واللحظة. يصفها ويكثف معناها. وهو يحمل وجهة نظر سياسية غاضبة غالبا، كما في رسوم ميدان التحرير في القاهرة، حيث تم تثبيت وجوه الشهداء وشعارات المرحلة: «إرحل». هذا هو فن الشارع. الشارع صنع الحدث وعبر عنه على الجدران بشكل مزدوج: ثقافي وسياسي. لذلك سيكون من الجيد أن تقلل وسائل الإعلام من تركيزها على خطاب المثقفين – وهو شكاوى تيئيسية في معظمه – لتركز على فن الشارع.

فما يجري الآن، خيرا كان أو شرا تبعا لموقع من يراقب، هو ثورة صنعها الشارع ولا يد للمثقفين فيها. وقد كان قبول جابر عصفور لمنصب وزير ثقافة في آخر حكومة لمبارك دليلا على انعدام البوصلة. ثم أن كبار المثقفين لم يتوقعوا سقوط حسني مبارك وموت القذافي في حفرة.

لكن بعد أن استوى محمد مرسي على كرسي الرئاسة في مصر، صار الإخوان المسلمون يعتبرون أن بقاء الغرافيتي عامل تحريض للشباب... خاصة وأن الصور تهيج الذكريات. وقيل إنها حرام شرعا.

الحل؟

انتشر خبر يوم ١٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢ في مواقع التواصل الاجتماعي يقول إن وزارة الداخلية المصرية أزالت رسوم «الغرافيتي» من محيط ميدان التحرير لتنظيف القاهرة. من جهتها، نفت الوزارة اشتراك الشرطة في إزالة «غرافيتي الشهداء»، وقد اعتبر النشطاء ذلك «طمسا لملامح الثورة».

طبعا حين تنتشر الزبالة على الأرصفة، وعندما يعلو سواد عوادم السيارات الجدران والعمارات، لا يستدعي ذلك نظافة. لكن الغرافيتي يحتاج تنظيفا، على أمل القضاء على المزاج الثوري الذي يهيمن على الشباب هذه الأيام.

يعتبر المنتصرون أن الثورة انتهت، وحان وقت تنظيف القاهرة للعودة للوضع الطبيعي. وفي هذا نظرة للغرافيتي كفن زائل، وإزالته إعلان عن سيطرة السلطة على الفضاء العام. من جهتها تحرص الذاكرة الشعبية على تخليد جراحها ووجهة نظرها، تنشد:

«يا نظام خايف من فَرشة وقلم ..
وبظلمك بتدوس ع اللى اتظلم
لو كنت ماشى فى السليم .. ماكنت
خوفت م اللى اترسم
آخرك تحارب الحيطان .. تتشطر ع
الخطوط والألوان
لكن أنت من جواك جبان .. عمرك ما
تبنى اللى اتهدم».

لمنع السلطة من طمس الرسوم والذاكرة الثورية، ولصالح بقاء الروح الثورية مشتعلة، أعلن عدد من النشطاء المصريين عن إقامة أسبوع تحت اسم «غرافيتي التحرير» احتل الأيام الأخيرة من أيلول/ سبتمبر، للتأكيد أن الثورة لم تنته. في المغرب لم تبدأ أصلا.

محمد بنعزيز

كاتب وسينمائي من المغرب

منطق سليم

التمرين الذي جرى منذ أيام، في مؤتمر «حزب العدالة والتنمية» التركي، مثير للعجب. صحيح أننا، في معظم المنطقة، أحفاد السلطنة العثمانية، ولكن مياها كثيرة جرت مذاك. من حق رئيس الوزراء التركي، السيد أردوغان، أن يكون منتشياً بنفسه، وأن يحلم بآفاق عظيمة له ولبلاده. ولكننا في منطقة عرفت على الدوام إمبراطوريتين كبيرتين تحيطان بها، ثانيتهما، الفارسية، أعرق وأقدم واكثر اتساقاً ذاتياً من الاولى التي نشهد اليوم استعادتها كأيديولوجية حاكمة. ثم والأهم، فقد كانت بينهما امبراطورية ثالثة، عربية. فلما لا يحق للعرب الاحتفاء بعروبتهم فيما رجب طيب أردوغان يستعيد السلاجقة؟

وكيف يصرف الرئيس المصري، الذي كان حاضراً ومشاركاً في ذلك المؤتمر، فرحته التي كادت تتفوق على فرحة مضيفه، بينما «امبراطوريته» لا ترد حتى في خياله السياسي، وهو يستجدي القروض فينالها، ثم يتكلم أمام حلفائه الاتراك عن سوريا، أخت مصر في العروبة، وثاني أجنحة «الجمهورية العربية المتحدة». أليس الأخ قبل ابن العم في عرف «الشرقية» التي فاخر بها في خطاب توليه الرئاسة، كما فاخر بعشيرته التي تتحدر من تلك البقعة من بلاده. وكيف يصرف السيد مشعل هو الآخر، زعيم «حماس»، مبايعته لأردوغان (خليفة؟)، متناسياً صلات انقرة غير المنقطعة بتل أبيب، ووجود علاقات عسكرية وتكنولوجية بينهما، وهذا في أقل تقدير، وبعيدا عن التقييمات السياسية العامة للأدوار، وعن الخزعبلات المرتبطة بالسفينة مرمرة. شيء من الثقل يا قوم، فلا مانع من الاحتفاء بتركيا قوية. ولكن الاستقواء بها يطرح سؤالاً ساذجاً: على من؟ وهل بعد ذلك يُلام من يستقوي بإيران، فلماذا هذا مشروعٌ وذاك ملعون؟ ثم، وأهم من هذه الاعتبارات المنطقية، فهذا الموقف يندرج في الوعي العام ممارسة طائفية لا تفعل غير تسعير الاستقطاب القاتل القائم في المنطقة.

نهلة الشهال

العربي السفير

ملف

١٠٠ إماراتي وإماراتية فقط يعملون في مهنة الصيدلة بالإمارات، أكان في الصيدليات أو المستشفيات ومراكز وهيئات وزارة الصحة، إضافة إلى القوات المسلحة، حسب وكيل وزارة الصحة. عدد القابلات الطبيات القانونيات مشابه، رغم جميع الحوافز التشجيعية التي تبذلها الحكومة لدفع المواطنين إلى التخصص في المجالات العلمية الطبية.

عندما تكتسب المفاهيم قيمة سلعة سريعة العطب

بطبول وصنوج نحاسية، وبصخب فرق العراضة، استُقبلت فكرة المجتمع المدني، قبل تحويلها إلى إيديولوجيا في سوريا والبلدان العربية. صيغ المفهوم في مراكز الأبحاث الغربية على عجل، في معاينة لتجربة نقابة «تضامن» البولونية ومبادرتها الاحتجاجية على سياسات التقشف التي تبنتها الحكومة بالتوافق مع صندوق النقد الدولي، وكذلك وفق الحاجات التعبوية للهجوم الإيديولوجي الإمبريالي على التجربة السوفياتية ونتائجها. وقذف به مشفوعاً بأختام مراكز الدراسات العديدة ليملأ فراغاً، قبل وأثناء وبعد انهيار الإتحاد السوفياتي والمنظومة التابعة له... مدعياً بغرور أنه سيكون مفتاحاً لبرنامج تحرري للشعوب المضطهَدة. وساهم في تمكين هؤلاء من ذلك عجز اليسار عن إنتاج مقاربة نظرية للتجربة الفاشلة، والوقوف على أسبابها وسيرورتها وأفقها التاريخي، ورصد احتمالات انبثاق حركات ثورية جديدة. وكان في ذلك يُبرز عجز أدواته التحليلية المستندة إلى أيديولوجيا «وعي زائف»، باتت معادية للشعوب واندفاعها لانتزاع وتثبيت حقوقها في الحرية والعدالة. ولكن مفهوم «المجتمع المدني» ظلَّ قاصراً عن إيجاد إطار فكري تفسيري لواقع هذه المجتمعات. وهو اعتمد على أشكال من الانتقائية التعبوية، هي من فضلات الخطط الحربية وزوائدها، أكثر من كونه يستدرج العقل إلى التأمل والتجريب والحوار. فأنتج مروِّجوه حالة من الفولكلور المضطرب والغامض... والغموض من مستلزمات الفكر الغيبي والشعوذة والسحر.

نُقدت التجربة السوفياتية وتوابعها من خاصرتها الضعيفة (غياب الحريات العامة). ومن خلالها تمَّ العبور إلى الاقتصاد الذي يسيطر عليه متحَّد لبيروقراطية مدنية وعسكرية لصوصية ولا أخلاقية، بعضها، كبولونيا، كان ينفذ ومنذ زمن قبل سقوطه، وصْفات المؤسسات المالية الدولية كالبنك وصندوق النقد الدوليين. ثم تمت النقلة الثانية، أي إحياء قضايا الأقليات القومية والدينية (البلقان– القوقاز) بمقاربات تفتقد للمبدئية وتندفع غريزياً بقوة ذرائعية تدميرية، تعي هدفها السياسي وتبصره. مفهوم «المجتمع المدني» لا يفسر شيئاً، ولا يصف شيئاً محدداً. له جذور قديمة في علم الاجتماع الأوروبي ومقارباته الفكرية للسلطة السياسية والدولة والمجتمع، لكنها وبعمومها لا تتحدث عن شيء بعينه، كل فيلسوف ومفكر (من هوبز ولوك إلى ماركس وغرامشي) يتحدث عن «مجتمعه» المدني.

تذكِّر النقاشات حول المجتمع المدني في البلدان العربية، وأسئلتها، باليسار الهيغلي في الجامعات الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر، الذي حوَّل الإنجازات الثورية للشعوب الأوروبية إلى مفاهيم مجردة. وقد رد ماركس وإنجلز ذلك إلى ضعف الحركة الديموقراطية الثورية في ألمانيا والى قوة الدولة البوليسية ورجعية سلطتها السياسية.

في مقاربة الدكتور عبد الرزاق عيد، وهو من أعيان «لجان إحياء المجتمع المدني في سوريا»، (ويسألونك عن المجتمع المدني)، نلمس هذا الاضطراب والقلق والتخبط، والعجز الواضح في السيطرة على المفهوم الزئبقي، الذي انتقل مع الفسحة الحوارية الضيقة التي سمحت بها الطغمة الحاكمة آنذاك، إلى عجز حوامله عن توطينه في الثقافة السياسية للبلاد وإعادة إنتاجه بما يوافق الحركة الديموقراطية فيها، ومشروعها. وطالما ذكّر الدكتور عيد بعبارة جوزف برودون «خصوبة اللامتوقع» لتتحوّل عنده هروباً إلى الأمام من عجز راسخ يصعب تجاوزه، وضرب من فأل «حسن الطالع» للمستقبل، يتحقق بمجرد الخروج من النفق الكابوسي الأسود الذي كرسه الاستبداد الطويل. وللحقيقة، لم يتبنَ موضوعة «المجتمع المدني» في سوريا مفكر، يعي حدود كلامه ومقارباته التاريخية. بل تبنته مجموعة من كتاب اليوميات الصحافية، اختار معظمهم في ما مضى الموقع الوظيفي لمندوب الدعاية لسلع الأيديولوجيا السوفياتية في عهدها «البريجينيفي» الأكثر انحطاطا وعديم الإنجازات. وهي عكست بعمومها حالة التبرّم واليأس المتولدة من الأحزاب المحلية التي فاتتها معظم قطارات التغيير، والتي توزعت خياراتها ومصالحها على احتمالين: التواطؤ المكتمل العناصر مع الطغمة الحاكمة، أو الموت المتواصل في السجون، مما ولد حالة من الفراغ الفكري والسياسي.

وازداد الأمر إرباكاً حين دخلت الجماعات الإسلامية المنفتحة والمحاورة على خط تبنيه، لتخلطه تارة بالمجتمع الأهلي، وتارة بالاقتصاد المؤسَّس على الأوقاف الإسلامية والجمعيات الخيرية الإحسانية. كثيراً ما نشعر بشفقة على هذا المفهوم، الذي لم يختلف مصيره عن مصير الطفل الوحيد في عائلة العميان. ويمكن اعتبار موضوعة «إحياء الخلافة الإسلامية»، التي أنتجتها بعض من التيارات الإسلامية (حزب التحرير الإسلامي على وجه الخصوص)، أكثر وضوحاً من تعبير «لجان إحياء المجتمع المدني»! فما الذي يُراد إحياؤه؟ المجتمع المدني. لكن ما هو المجتمع المدني، وهل هو في عالم الأموات؟

المفهوم مبددٌ بين البنية الاجتماعية الرأسمالية بخصائصها الليبرالية النموذجية تارةً، (وهي عند الكثيرين عودة حلْمية ذات سمات طفْلية إلى مرحلة ٥٤ –٥٨ من تاريخ سوريا)، وبين استرداد النقابات المهيمن عليها بوليسياً تارة أخرى، وأخيراً بين تفعيل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان والمواطن، وجمعيات الدفاع عن المعتقلين وضحايا التعذيب، ومنظمات الدفاع عن حقوق المرأة وتمكينها الحقوقي والاجتماعي والسياسي... وبعد مرور عقد من الزمن السوري الطويل على تلك التجربة، يتوجب وقفة للنقد الذاتي، وإعادة فحص وتعيين للمفهوم، واختبار حدوده، وليس من الخطأ رميه جانباً. من يذكر اليوم الرواج الهائل لروايات كولن ولسن، وألبيرتو مورافيا، بل من يذكر اليوم الكتابات الصقيعية لـ أفاناسيف وزرادوف ونيكيتن... التي كانت تحضِّر الثورات بفعل يشبه تحضير أرواح الموتى عند سحَرة الهنود الحمر. عموم تلك الكتابات لم تحقق وظيفياً سوى دور الحطب الرطب لشعوب «قتلها البرد والجوع».

عزيز تبسي
كاتب من سوريا

من صفحة «الفن والحرية»

إشكاليات المجتمع المدني العربي

يرى صالح السنوسي (*) أن البنية الاجتماعية والبنية الثقافية للمجتمعات العربية من أهم معوقات نشوء وتطور المجتمع المدني. فالتكوين العصبوي للدولة القطرية العربية – في معظم حالاتها – يقف عائقا أمام قيام مجتمع مدني فاعل وقوي، حيث يحل مفهوم العصبة محل مفهوم المجتمع المدني، لأن العصبة ببناها التقليدية كالعشيرة والطائفة، لا يُبنى عليها مجتمع مدني يقوم على المبادرة ويتكئ على قطاعات واسعة من الفئات الاجتماعية المختلفة المترابطة مصلحيا. فالفعل والمبادرة في الأطر العصبوية محدودان بحدود العصبة، كذلك فإن فكرتي التوازن والمساواة اللتين تقوم عليهما فكرة المجتمع المدني لا تتماشيان مع مفهوم القبيلة أو الطائفة المغلق. تلعب العصبة دورا معوقا وبديلا في آن واحد، في مواجهة المجتمع المدني، الذي تنتمي تنظيماته إلى المجتمع في كليته، وذلك من خلال قيامها بسد حاجة الفرد الى الانتماء إلى جماعة. غير أن هذا التكاتف والتآزر الذى يحصل بين أفراد العصبة يكون في الأغلب بمواجهة العصبة الأخرى، وليس بمواجهة تغوّل السلطة واستبداديتها.

ومن هنا يربط بعض الباحثين، كما يذكر الكاتب، بين طبيعة المجتمعات الخليجية على سبيل المثال، وعدم وجود مجتمع مدني فيها. فالسلالات العائلية والقبلية هي التي تتحكم في الفرد بحيث تصبح المشاركة السياسية لها علاقة بالانتماء القبلي أو الطائفي. كما أن السلطة، التي هي ثمرة هذه العصبيات، تشجع هذه الروابط وتجعلها أكثر سطوة من محاولات إنشاء منظمات مدنية، وذلك أن الدولة والسلطة جرى إنشاؤهما على قاعدة العصبة والولاء للقبيلة أو الطائفة قبل الوطن. فالعصبة في مفهومها الإثني أو الطائفي أو القبلي أو الجهوي، تمثل عائقا ليس من السهل تجاوزه نحو مفهوم المصلحة العامة ومن ثم الدولة والوطن.

هذا في ما يتعلق بالبنية الاجتماعية. أما بالنسبة للبنية الثقافية فهناك، وفق الكاتب، تيار واسع من ممثلي الفكر الإسلامي يرفضون مفهوم المجتمع المدني وما يحيل إليه من معان وتطبيقات. ويأتي هذا الرفض كنتيجة منطقية لموقف هؤلاء من مفاهيم أخرى كالعلمانية والعقلانية والديمقراطية وغيرها، التي أنجبتها ثقافة الحداثة الغربية. ولا يرى هؤلاء ضرورة لوجود المجتمع المدني بمفهومه الغربي في المجتمع الإسلامي، بل يرونه محاولة لنقل التناقضات التي شهدتها مجتمعات الغرب، المختلفة دينيا وثقافيا، إلى المجتمع الإسلامي. وهناك آراء أخرى لا ترى فرقا بين المجتمع المدني والمجتمع الأهلي الذى عرفته المجتمعات الإسلامية في حقب تاريخية سابقة. ولكن محاولة البحث عن علاقة أبوة بين المجتمع المدني والمجتمع الأهلي يمكن أن تواجه، برأي الكاتب، كثيرا من الانتقادات السياسية والتاريخية. فعلاقة هذه التنظيمات بالسلطة على سبيل المثال، لم تكن قائمة على أساس الموازاة بل على أساس التبعية، كما أن معظم تنظيمات المجتمع الأهلي تستند على البنى الاجتماعية التقليدية كالعائلة والقبيلة والطائفة، التي هي في الواقع مصدر العصبية السياسية في الدولة العربية. فهي التي تنتج السلطة والطبقة الحاكمة. فإذا ما قامت مؤسسات المجتمع المدني معتمدة على هذه البنى، فلن تكون لها استقلالية، ولا دور مواز للدولة.

بين عجز المجتمع واستبدادية السلطة

في الفصل الذى يحمل هذا العنوان، ذهب المؤلف إلى أن احتكار السلطة في المجتمعات العربية لكل ما هو سياسي واقتصادي، وتحكّمها في تشكيل بنى المجتمع بالكيفية التي تخدمها، جعل التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية والأحزاب السياسية لا تظهر إلا حسب مشيئة السلطة، وبالشروط والمواصفات التي تجعل منها مجرد ملحقات تابعة لمؤسسات السلطة السياسية. ويُرجع الكاتب السبب الجوهري في ذلك إلى فقدان روح الفعل الجماعي لدى أغلبية أفراد الجماعة العربية، وانعدام الاستعداد لقبول المخاطرة والتضحية، والاكتفاء بدور المتفرج. ولذا فإن النتيجة دائما هي نجاح السلطة في القضاء على محاولات مجموعات قليلة لتكوين منظمات مجتمع مدني مستقلة، إن لم تقبل بالانضواء تحت مظلتها كغيرها من المنظمات الصورية التي أنشأتها السلطة كرديف لمؤسساتها.

ولكن ألا يحتاج هذا الطرح من جانب الكاتب إلى إعادة نظر فى ظل المعطيات الجديدة التي فرضها حراك المجتمعات العربية؟ على الأقل بالنسبة للدول التي قامت شعوبها بثورات ضد الأنظمة المستبدة، ولم تعد تقتنع بدور المتفرج الذى ظلت تلعبه على مدار عقود.

إشكالية الغرب

يقول الكاتب إن انتقائية الغرب في دعمه لحركة المجتمع المدني العربي، حسب مصالحه الاستراتيجية في المنطقة، أدت إلى اتهام هذه المنظمات من جانب كثيرين بأنها مجرد أداة لتنفيذ أجندة الغرب في المنطقة. وعن التمويل الخارجي، يقول إنه فُرض على هذه المنظمات مقابل تمويلها تبني القضايا التي تعتبرها الأطراف المانحة أولويات، مثل قضايا الأقليات والدين والمرأة، والتركيز عليها في عملها وصوغ مطالباتها. وهو ما أثار شكوكا حول هذه المنظمات، خاصة مع استغلال السلطة الأمر لتشويه صورتها بتهمة العمالة والتبعية، إضافة إلى أنه أدى إلى ظواهر سلبية، منها ما يسميه البعض بـ«المراكز المصطنعة»، وهي التي تنشأ بمبادرة شخص بمقر ممول وعدد من الموظفين الذين أخرجهم التمويل من بؤس البطالة وأزمة سوق العمل، يعملون بصورة منفصلة تماما عن الصراع المجتمعي والمقاومة المدنية. كما أصبح الحصول على التمويل غاية في حد ذاته وليس وسيلة للدفاع عن مبادئ وقيم.

المجتمع المدني بعد الثورات: أي مستقبل؟

نقف أمام واقع جديد بعد ثورات «الربيع العربي». وإذا كان المجتمع المدني، الذي يتجاوز جمعيات البر والإحسان إلى منظمات فاعلة سياسيا واجتماعيا وثقافيا، لا يمكن أن ينشأ، كما يؤكد الكاتب، في الفراغ والخواء السياسي، بل يجب أن يسبقه مناخ سياسي تعددي يولد عن حراك تتولاه أحزاب وتنظيمات سياسية قوية قادرة على مواجهة السلطة، فالسؤال هو: إلى أي مدى سوف يؤدي هذا الواقع الجديد إلى خلق بيئة سياسية مواتية لوجود مجتمع مدني عربي قوي، غير مخترق من قبل الغرب، ويعمل وفق أجندة وطنية وليس وفق الأولويات التي تمليها المصالح الغربية؟ وكيف يتحقق ذلك، بمعنى هل وقوع الثورات تلك وحده كفيل بتحقيقه؟

(*) صالح السنوسي، أستاذ القانون الدولي والعلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة بنغازي، «إشكالية المجتمع المدني العربي، العصبة والسلطة والغرب». صدر مؤخرا عن مكتبة الأسرة في مصر.

منى علاَّم
صحافية من مصر

مواقع

شريكة / صديقة

«جسور»: بوابة المجتمع المدني للمشرق والمغرب

يبتعد موقع جسور، برغبة منه، عن الأخبار الجارية. العنوان الرئيسي للمشروع هو المجتمع المدني: «بوابة المجتمع المدني، مشرق ومغرب». وهو يحاول نشر أفكار المنظمات غير الحكومية، على اعتبار أنه ليس بمقدورها جميعاً الاستفادة من الامتيازات التي توفرها شبكة الإنترنت. تمت انطلاقة المشروع بمبادرة من جمعية «منتدى بدائل المغرب» بالشراكة مع منظمات «أوكسفام» و«نوفيب» و«بدائل الدولية» Alternatives internationales.

يعجّ موقع جسور بالعناوين. يكاد التبويب الكثيف يُدخل الزائر في سلسلة واسعة لا نهاية لها. يبدو أن الهدف من هذه «الفوضى» هو إبراز العدد الأكبر من المواثيق والبيانات المرتبطة بالمجتمع المدني مشرقاً ومغرباً. يعرض «جسور» قائمة المنظمات غير الحكومية، تليها ترسانة المواثيق والوثائق... فتطول اللوائح والعناوين المتشعّبة بدورها، ويتأكد المنحى التوثيقي للموقع. ورغم ذلك، يعرض الشريط («سلايدر») الذي يعلو الصفحة الرئيسية سلسلة أخبار بصورة متتالية ومحدثة ، تحمل قاسماً مشتركاً: «أخبار المجتمع المدني»،

تغلب عليها المسائل المتعلقة بالنساء: سجن فتاة سعودية بعد تعرضها لاغتصاب جماعي، تفاجؤ الوسط النسوي والحقوقي بالمنحى الذي اتخذته قضية اغتصاب شرطيين لفتاة، اثبات وقائع تخص التحرش الجنسي بمصر، ندوة دولية حول الحق بالحصول على المعلومات...

تبرز مشكلة الأخطاء اللغوية، إضافة إلى عدم الاكتراث بالصور وهي صغيرة وغير واضحة. لكن «جسور» مهتمة بالفيديو وتعمل على إبرازه في خانة مخصّصة لتقارير مصوّرة عن ندوات أو ورشات عمل، تلتقي مع مواضيع الموقع. يذكر القيمون على الموقع أن أهداف «جسور» هي «تمكين الساكنة والفاعلين بالمجتمع المدني في هذه المناطق التي تجمع بينها اللغة العربية، من الولوج لهذا النوع من المعلومات بشكل مركز وسهل الاستعمال، بالإضافة إلى إنتاج ونشر تحاليل حول هذه القضايا»، هذا إضافة إلى « المساهمة في تحقيق مشاركة مكثفة لفعاليات المجتمع المدني مغرب / مشرق في الحركات الاجتماعية التي تقترح بدائل مواطنة، وكذا في البحث والتحليل وإنتاج مقالات حول ظواهر العولمة». وتعلن «جسور»عن إذاعة خاصّة بها سيتمّ افتتاحها في وقت قريب. يخصّص الموقع في الصفحة الرئيسية خانة لكل دولة، مع الاهتمام بذكر الدول التي يجري فيها حراك مدنيّ. وفي التبويب، تبقى أخبار كل دولة مفروزة على حدة. ومن آخر الملفات المطروحة: الإعلام الجمعوي، المنتدى الاجتماعي العالمي في تونس ٢٠١٣. فموقع جسور، بحكم نشأته من قلب حركة مناهضة العولمة، يهتم بشكل خاص بالمنتديات الاجتماعية على أنواعها، وليس فحسب تلك الكبرى. فنجد تقارير عن «المنتدى الاجتماعي للأحياء الشعبية» الذي انعقد في الدار البيضاء منذ بضعة أشهر، وكان شعاره «حي آخر ممكن» (على غرار «عالم آخر ممكن»، الشعار العام للمنتديات العالمية). خدمات الموقع مؤمنة بالعربية والفرنسية والإنكليزية.

http://www.e-joussour.net/ar

فكرة

سوريا واليُتْم التاريخي

استعادت عبارة «البكاء على الأطلال» معناها اللغوي الحَرفي في سوريا، بعدما ظلّت استعارة مجازية غالباً ما تُستخدَم للسخرية ممَّن يقضي وقته مستذكراً تاريخاً عظيماً مضى، أو حضارة استحالت انحطاطاً. اليوم هو زمن البكاء على أطلال الآثار السورية، بما أنّ خمسة من المواقع الأثرية الستة في البلاد، وبينها مدينة تدمر الصحراوية التاريخية وقلعة الحصن وأجزاء من دمشق القديمة، تأثرت بالقتال بحسب منظمة «اليونيسكو». وفي الأيام القليلة الماضية، انضمّت أسواق حلب التراثية التي تمتد على طول كيلومترات، والتي وصفتها «اليونيسكو» أيضاً بأنها «تحفة التحف»، إلى دائرة الضحايا العمرانية والتاريخية لحرب الاحتفاظ بالسلطة وبالثروة وبالبلد. انضمّت سوريا إذاً إلى رابطة دول اليُتم التاريخي العربي، إلى جانب العراق وفلسطين. لا نقاش في فداحة الكارثة، لا على علماء الآثار والأنثروبولوجيا والتاريخ ومَن يهتمون بدراسات وأبحاث وسياحة هذين القطاعين فحسب، بل والأهم، على البشرية عموماً، بما أنّ منطقتنا، وسوريا بشكل أساسي، تُعتَبَر من أقدم المناطق التي سكنها الإنسان وشيّد فيها حضارات وأمما. والحديث عن الإبادة الجارية حالياً على آثار سوريا، يستحضر بالضرورة ملف التعاطي مع هذا الإرث طيلة الأربعين عاماً الفائتة، كانت الآثار خلالها شبه مُلكية خاصة لرموز النظام. سُرق خلالها ما سُرق من كافة المحافظات السورية (ما تبقّى في السويداء جنوب البلاد شاهد على حفلة النهب)، وتمّ بيع أجمل ما تركته الحضارات الغابرة، وتمّ التعاطي مع قطاع الآثار السورية مثلما تعامل النظام مع الثروة النفطية، خارج إطار الموازنة السنوية الرسمية. وما كان ينقص الكارثة لكي تكتمل، حصل في نهاية تسعينيات القرن الماضي، مع دخول «الانفتاح الليبرالي» إلى أجندة حكم البعث. وبحجة الانفتاح، وجب تدمير مبانٍ وشوارع تراثية لتوسيع الطرقات (حتى في قلب الأسواق القديمة لدمشق) ولتشييد أبراج وأسواق تجارية مكانها تتّسع لمكاتب شركات الطيران وفروع المصارف الخاصة وشركات التصدير والاستيراد، عصب اقتصاد «الرمرمة»، أو الخصخصة على طريقة رامي مخلوف باللغة الساخرة للسوريين. اليوم، تشهد حلب، من بعد حمص وحماه وغيرهما، تدميراً بالمدافع وصواريخ الطائرات للآثار، أكثر قسوة بلا شكّ مما كان جارياً على شكل سرقة أو تهميش أو خصخصة. السجال حول المسؤولية عن المجزرة بحق الآثار والأحياء التراثية شبيه بالبحث عمَّن يقتل مَن. ثمة من قال، منذ اليوم الأول لبدء الثورة، إنه لن يسمح بمرور «المؤامرة» «مهما كلّف الثمن». ثمن يمكن أن يكون حجراً وبشراً أو كلاهما معاً، مثلما هو حاصل اليوم. صحيح أنه لا وجود لحرب أبدية، لكن التقديرات لا تزال تشير إلى أن الأمر سيطول. الثمن، بكل المعاني، فادح.

أرنست خوري

العربي السفير

قضية

١٥٠٠ أستاذ و١٤٠٠ معلِّم و١٣٠٠ قيِّم هو عدد الشواغر في المدارس والمعاهد والإعداديات التونسية. أسباب ذلك متعدِّدة، من بينها أنّ هناك أكثر من ٢٠٠٠ طلب نقل من قبل أساتذة يرغب جلهم في التدريس في الجهات الشرقية للبلاد وفي العاصمة ومحيطها، أي تونس الكبرى، ولم تتم الاستجابة سوى لنحو ٢٥٠ طلبا منها حتى الآن.

«العدالة الاجتماعية» في مصر اليوم

عندما اندفع طوفان «ثورة ٢٥ يناير»، توافقت حناجر الثوار منذ اللحظة الأولى على شعارين أساسيين، أولهما كان إسقاط حسني مبارك، وثانيهما كان ثلاثي الأبعاد، جسد طموحات المصريين في « الخبز، الحرية، العدالة الاجتماعية». وقد تبلورت مضامين وأبعاد هذا الشعار بعمادة الدم بعد سقوط حوالي ألف شهيد، بالإضافة إلى ما يقارب عشرة آلاف مصاب.

وإذا كانت مضامين «الخبز» و«الحرية» مفهومة (الى حد ما)، فقد تاهت ملامح وركائز تحقيق العدالة الاجتماعية. فذهب البعض إلى اعتبار تعيين حدّين أدنى وأعلى للأجور بمثابة الأساس الحقيقي لهذا الشعار. وقال آخرون انه تنفيذ سياسة ضريبية جديدة تقوم على تحمل الطبقات الثرية، ومن تمتعوا بثمار النمو المشوه طوال الأربعين عاما الماضية، الأعباء التي تتناسب مع ما جنوه من أرباح ومكاسب. فيما رأى أخيرون بأنه اعتماد سياسة جديدة في مجال التوظيف والتشغيل تخرج عدة ملايين من الشباب والشابات من مستنقع البطالة. أما كبار السن والمتقاعدين، فالعدالة الاجتماعية تتركز بنظرهم في وجود نظام جديد لمعاشات التقاعد والخدمات العلاجية والصحية يلائم احتياجاتهم ويحفظ لهم كرامتهم. وبين هذا وذاك، جاء المطلب الأكثر جذرية من الشباب وقوى الثورة، بضرورة إعادة توزيع الدخول والثروات.

ركائز سياسات العدالة الاجتماعية

ترتبط ركائز العدالة الاجتماعية بتوفير الحد الأدنى من الحاجات لكل الناس. أما القطاعات فتخص الأساسيات، من حق في التشغيل والتعليم والصحة والسكن. وابتداء، فلا بد من تعيين الاعتداء المهول الذي لحق بتلك الاساسيات في الفترات الانفتاحية في مصر، عمداً أو بالإهمال والتجاهل، (ومؤداها واحد)، بمقابل توفير حاجات قلة من الناس، أو هندسة الامور لتمكين تلك القلة من توفير حاجاتها. وبعد ذلك، وفي ضوئه، يمكن تلمس المخططات المطلوبة وتعيين الادوات والوسائل والتقنيات الملائمة لها. أي نتفق على «عن ماذا» نتكلم، ثم بعد ذلك على «كيف» نتدبر الامر:

١- يتجاوز حجم البطالة في مصر ثمانية ملايين شاب وفتاة، وهو ما يعادل ٢٥ في المئة من القوى العاملة فى المجتمع، البالغة ٣٣ مليون إنسان. ويكفي أن نشير إلى ٢٥ ألف مستشار ومتعاقد جرى تعيينهم من قبل الحزب الوطني ولجنة سياساته منذ عام ٢٠٠٠ حتى خلْع الرئيس حسني مبارك، كانوا يكلفون الموازنة العامة للدولة ما يربو على ٨.٧ مليارات جنيه، وهي القيمة نفسها تقريبا التي كانت تسمح بتعيين ما يعادل ٧٢٥ ألف شاب وفتاة مقابل أجر شهري يصل إلى ألف جنيه، أو كان من الممكن منح إعانة بطالة قدرها ألف جنيه شهريا لمثل هذا العدد من المتعطلين مقابل تكليفهم بمهمات الخدمة المدنية. على أن معالجة أمر البطالة يعود الى مجمل بنية الاقتصاد المصري وأولوياته، بما فيها تلك العائدة الى مكانة الريف والعمل الزراعي. فلو حُلَّت مشكلة ثلاثة أرباع مليون عاطل، فماذا عن الملايين المتبقية، والمتزايدة عاماً بعد عام؟

(محمد حنون - أب)

٢- رد الاعتبار للمبدأ الدستوري الخاص بمجانية التعليم في جميع مراحله، يتطلب رد الاعتبار للمدرسة الحكومية كأساس لقاعدة التعليم في البلاد، وتحسين أوضاع المعلمين والأبنية التعليمية، والمناهج التعليمية والتربوية، ونظم الامتحانات وتنمية المهارات والقدرات. وللعلم، زاد عدد المدارس الخاصة بمصروفات في مصر من ٦٧٢ مدرسة عام ١٩٧٧ (تضم في صفوفها حوالى ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف طالب وطالبة)، إلى خمسة آلاف مدرسة عام ٢٠١١ تضم في صفوفها حوالى ١.٧ مليون طالب وطالبة.

٣- من الملح بلا شك توفير مظلة تأمين صحي لكل المصريين، وبخاصة منهم محدودي الدخل والمسنين، وإعادة هيكلة النظام الصحي والمنظومة الصحية عموما، مع هيكلة الإدارة المالية لهذا القطاع. لقد أظهرت المسوح التي قامت بها وزارة الصحة بدءا من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠١٠، وبالتعاون مع منظمة الصحة العالمية وغيرها من المنظمات الإقليمية والدولية المعنية، حجم الكارثة الصحية التي يعيشها الشعب المصري، والفقراء على الخصوص. فبالنسبة لعام ٢٠١٠، تبين أن مرضى الكبد الوبائي بأنواعه الثلاثة (فيروس A,B,C) يزيدون على تسعة ملايين شخص، ويزيد مرضى السكري على ستة ملايين شخص، ومرضى الفشل الكلوي على مليون شخص، ومرضى القلب على أربعة ملايين شخص. أما مرضى السرطان من جميع الإعمار فيزيدون على ثلاثة ملايين شخص. أي أن ما يقارب من ثلث مجمل السكان مصابون بأمراض ثقيلة وخطيرة ومزمنة! وبسبب الإهمال شبه المتعمد للمستشفيات العامة، وتواضع المخصصات المالية السنوية لها، فهي لم تعد قادرة على تحمل هذا الضغط الكبير. وقد أصدر الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، أن عدد المرضى الذين ترددوا على المستشفيات العامة عام ٢٠٠٦ بلغ ٤٩,٥ مليون مريض، أقام منهم داخل المستشفيات حوالى ٤,٧ مليون مريض. أما المستشفيات الخاصة والاستثمارية التي تزايد عددها بصورة كبيرة في الثلاثين عاما الماضية، فقد زارها حوالي ٦,٥ ملايين مريض، وتلقى العلاج داخلها (إقامة) حوالى ١,٦ مليون مريض.

٤- بالنسبة للسكن، فهناك حاجة إلى تغيير جذري في النهج المتبع طوال الأربعين عاما الماضية، والمعتمد على مفهوم «التمليك» وحرمان الفئات الفقيرة والطبقة الوسطى من فرص حقيقية للسكن. فقد جرى منذ منتصف السبعينيات، وفي إطار التحول الاجتماعي لدور الدولة ومؤسساتها، تغيير في السياسات الحكومية بحيث لم تعد الأجهزة الحكومية تقوم ببناء وحدات سكنية تناسب محدودي الدخل من العمال والموظفين، بل تحولت إلى البناء من أجل البيع وتحقيق الأرباح، من خلال المضاربات على الأراضي والوحدات السكنية. يشير احصاء التعداد العام للسكان والمنشآت الذى تم عام ٢٠٠٦، الى وجود حوالى ٢.٥ مليون وحدة سكنية مغلقة وغير مستخدمة، انتظارا لبيعها من جانب الملاّك، سواء من القطاع الخاص أو القطاع الحكومي. بينما هناك حوالي ٥٠٠ ألف أسرة مصرية تعيش بين القبور.

خلاصات: بعض السبل

هناك حاجة لضبط الأسواق والأسعار من خلال تفكيك الاحتكارات الراهنة المسيطرة على هياكل التجارة والاستيراد والصناعات الأساسية (كالحديد والاسمنت والأسمدة واللحوم والزيت والسكر والألبان.. الخ)، وتعزيز صور المنافسة الحقيقية في الأسواق عبر سياسات جديدة للتشريع، وتوسيع صلاحيات الأجهزة التنفيذية والأهلية. فعلى سبيل المثال، تبين خلال عامي ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩ أن شركات الحديد التي يملكها السيد أحمد عز قريب الصلة بنجل الرئيس وأسرته، قد بلغت حصتها من سوق الحديد ما بين ٥٨ في المئة إلى ٦٢ في المئة، بينما يقيّد القانون المنافسة ومنع الاحتكار بنسب لا تتجاوز ٢٥ في المئة فقط.

وينطبق الامر نفسه على الزراعة والتسويق الزراعي. فلتوفير مستلزمات الإنتاج الزراعي، لا بد من تفكيك الاحتكارات الراهنة المسيطرة على مدخلات الإنتاج الزراعي (البذور والسماد والمبيدات.. الخ) وإعادة النظر في نظم التمويل والتسويق الزراعيين، بعيدا عن هيمنة الاحتكارات المهيمنة. فقد أدت السياسات الحكومية طوال عهد الرئيس المخلوع حسنى مبارك إلى تآكل الرقعة الزراعية عاما بعد آخر. وانخفضت بالمقابل نسب الاكتفاء الذاتي من أهم المحاصيل الزراعية، مثل القمح الذى انخفض من ٦٥ في المئة في مطلع السبعينيات إلى أقل من ٤٥ في المئة في نهاية عهد مبارك. وهكذا تقريبا لمعظم الاحتياجات الزراعية الأساسية، ما جعل القرار السياسي والاقتصادي المصري مكشوفا استراتيجياً.

واخيرا فالأمن والقضاء النزيهان والمستقلان، من شروط تحقيق حد من كفالة العدالة الاجتماعية، فتصبح أجهزة الأمن بعيدة عن التحزب السياسي والتحيز الاجتماعي، ما يضمن حماية القانون وتطبيقه بنصوصه وروحه.

عبد الخالق فاروق

مدير «مركز النيل للدراسات الاقتصادية والاستراتيجية»

هل تهرم شرطة المطاوعة؟

تعرف المطاوع من اللحية، والثوب القصير، والدمغة على الجبين. والمطاوع هو فردٌ من «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، الشرطة الدينية في السعودية، الموكلة بالحفاظ على حسن تطبيق الشريعة الإسلامية في الأماكن العامة وفي الأسواق والمجمعات التجارية، والحؤول دون وقوع المنكرات، من اختلاط غير شرعي بين الجنسين، إلى الدعوة إلى الصلاة، وحث النساء على ستر شعورهن والالتزام بتعاليم الحجاب. والمطاوع سلطة قادرة، لا يقف أمامه قانون وضعي أو رجال شرطة، يكفي أن يشك ليغير المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه، وهذا ما يراه أضعف الإيمان.

«استري شعرك»، «ممنوع»، «يا أخي»، «يا أختي» «صلاة، صلاة»، «حرام»، «اتقوا الله»...

سطوة الهيئة

تتجوّل العيون المراقبة لسدّ أي ثغرة تراها تشقّ طريقها إلى العلن. بيدها تمسك بالحقّ الذي يوجب عليها إجراء التغيير، لا أحد يمنعها، فهي هنا اليد الطولى في البلاد، من واجبها تغيير كلّ ما تراه منكراً، وهو مفهومٌ تتسّع دائرته وفق رؤية ذاتية للمنكر. فالخلوة بين الذكر والأنثى حرام، وإذا ما تمّت رؤيتهما من قبل الشرطة الدينية يسارع المطاوع إلى الاستفسار عن الحالة الاجتماعية التي تربط بين الفردين والتثبّت منها.

الهيئة هي الآمِر والناهي في المملكة. تحدّد الممنوعات والمسموحات، وتقرّر الأمور التّي فيها صلاح المجتمع: تحمي المجتمع السعودي من مدّ الحضارة الغربية المخيف، وهي من يحول دون جلوس النساء خلف مقود السيارة «خوفاً من فقدانهنّ لعذريتهن». تتدخّل الهيئة في أيّ عملية إصلاحية تقرر المملكة إجراءها. فالسماح للنساء بالعمل في محال المستلزمات النسائية أخذ الكثير من الردّ والجدل والنقاش، لم تقتنع الهيئة بهذا القرار، رأت فيه بداية لتغريب المجتمع السعودي، وحثّه على الانفلات وانهيارا لجدار الفصل الذي بنته المملكة عاما بعد عام. حاولت بكل قوّتها الوقوف في وجهه. هددت، خوّفت، لكن إصرار وزير العمل على وضعه موضع التنفيذ ضيّع جهودها سدى.

مارست الهيئة سطوتها على المجتمع، التغيير الذي سمحت به كان قليلاً وتمّ نتيجةً لضغط هائل من مجتمعٍ هو خليط من مواطن أصلي يفهم خبايا الأمور، ومقيم يرغب بنقل معالم مجتمعه لتطعيم المجتمع الذي يعيش فيه. يخاف الكل من الهيئة، يحاولون تفادي رجالها المنتشرين في أماكن التجمعات والأسواق يوزّعون تعاليمهم وتعليماتهم على مختلف الأفراد. يخاف الجميع من قدرتهم العجيبة على رؤية التّهم والتدّخل في تفاصيل الأمور، يحاولون التأقلم مع هذه القوّة التّي تجعل من أبسط الأشياء خطيئةً لا تُغتفر.

من هي الهيئة

تأسست الشرطة الدينية في المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٠، مركزها العاصمة الرياض، تجمع تحت لوائها ٤٠٠٠ عنصر يعرفون بـ«المطاوعة»، ويرأسها مدير تنفيذي يعينه الملك.

مهمة هذا الجهاز الرسمي «تطبيق الأحكام الشرعية الإسلامية في الأسواق العامة وغير ذلك من الأماكن» والحيلولة دون وقوع المنكرات الشرعية التّي تُظهر عدم الاحترام للدين الإسلامي».

كما يقوم عناصرها بالانتشار في أماكن التجمعات ودفع الناس لتلبية نداء الصلاة، وتأدية هذا الفرض الواجب جماعة، والعمل على إيقاف حركة البيع والشراء. تمنع الهيئة الحفلات الموسيقية العامة أو تلك الخاصّة في أماكن عامة، وتملك الحق في التفتيش في هواتف الشباب الجوالة بحثا عن رسائل يرونها تتعارض مع أحكام الشريعة.

وقد أنشأت المملكة معهدا عاليا مختصا بشؤون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تابعا لجامعة أم القرى، ويعمل على إجراء الدراسات التي تبحث في دور الهيئة ونظامها كمؤسسة في المجتمع.

تصدر الهيئة لائحةً طويلة بالممنوعات والمسموحات التي تعمل على تطبيقها على المجتمع السعودي، ترافق وتيرتها المتصاعدة التأثيرات المتزايدة للمبتعثين العائدين من الخارج، والحراك الاجتماعي والسياسي المطالب بالحرية والذي شهدته الدول المجاورة، كاليمن والبحرين.

رهاب ومطاردات وموت

تسكن في أذهان الناس صور سلبية عن الشرطة الدينية في السعودية. صور وليدة حوادث مفجعة أدّت إلى فقدان أرواح كان يمكن تفادي موتها. هذه الحوادث شكّلت بصمة سيئةً في سجل الهيئة وجعلتها عرضةً لاتهاماتٍ بانتهاك حقوق الإنسان. فالهيئة اتّهمت بأنّها تقف خلف زيادة أعداد الضحايا من الفتيات في حريق وقع في مدرسة البنات في مكّة عام ٢٠٠٢، عندما رفض عناصرها دخول فرق الإنقاذ من رجال إطفاء وإسعاف إلى حرم المدرسة، وأغلقوا الأبواب على البنات والحريق مشتعلٌ فيها بحجّة أنّ الفتيات «لا يرتدين الحجاب» «وبأنّه لا يجوز للفتيات أن ينكشفن أمام الغرباء».

وآخر الحوادث التي زادت من حدّة الانتقاد كانت عملية مطاردةٍ لمشتبه به من قبل رجال الهيئة، أدّت الملاحقة إلى مقتل الرجل وإصابة زوجته وأحد أطفاله بجروحٍ خطيرة في حادثة صارت تعرف باسم «حادثة بلجرشي»، أصدر على إثرها الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ قرارا يمنع فيه رجاله من القيام بعمليات الملاحقة، وإيكال هذا الأمر إلى القوى الأمنية المختصة.

لا تريد المملكة للهيئة أن تتحوّل إلى عدوّ داخلي يزرع الرعب في قلوب الناس، لكن السعوديين يرون في تصرفات بعض أعضائها قسوة لا تولد غير النفور. والفجوة إلى اتساع. فما يعتبره رجال الهيئة إرشادا يرى فيه المواطن تدخلا سافرا بأموره الشخصية، والهداية التي يسعى المطاوعون إلى تحقيقها تختلف مقاييسها من فرد لآخر. وبالرغم من أنّ السعوديين تعوّدوا الهيئة، وأصبح مقياسها للأمور هو دليل الصواب والخطأ، إلا أنه يشوب التعامل معها نوع من التردد. فالمجتمع يرى فيها جهازا يحفظ الصورة العامة كما يريدونها، قائمة على تعاليم إسلامية، لكن بعض تصرفات عناصرها تزعج السعودي، ما جعل من رجالها عقدةً يحاول الجميع تفاديها، أو تجاوزها، لا فرق.

هناك شيء غريب يحدث في السعودية. فالمجتمع الذي ظلّ لفترة طويلة يحاول اتّقاء سطوة الهيئة تظهر عليه علامات التململ. حوادث غريبة ساعدت في انتشارها شبكة تواصل اجتماعية قائمة على عالم افتراضي بدأ يشكّل جماعات الضغط في البلاد ويخلق مجتمعا مدنيا يحاول المطالبة بالحقوق كما تطالبه الدولة بأداء الواجبات. من التويتر إلى الفايسبوك واليوتيوب، تنتشر بسرعة النار الأخبار عن حوادث تتعلق برجال الهيئة، وتشكّل «هاشتاغ» لإعطاء الرأي والمطالبة بتغيير مسار الأمور. بل تعرضت الهيئة، كجهاز، لحملة على التويتر تطالب بإلغائها.

الهيئة والشباب السعودي

الشباب الذي كان يتعاطى بحذر مع رجال الهيئة بوصفه المتّهم والمستهدف الأول لرجالها، لم يعد يمانع ردّة الفعل الدفاعية. فالآونة الأخيرة شهدت تحركات من قبل الشباب السعودي تجاه أفراد الهيئة. فمن كان يعمل على الانصياع لأوامرهم من دون أن ينبس ببنت شفة بدأ بمواجهتهم بأساليب قد تصل لحدّ التعرّض بالضرب. وانتشرت الأخبار عن حوادث تجمع الشباب إلى عناصر الهيئة: فتاة سعودية تعتدي بالضرب على عضو الهيئة بقذفه بحجر على رأسه بعد اكتشافها في خلوة غير شرعية مع شاب أجنبي. فتيات يضربن رجال الهيئة بعد قيامهم بتوجيه انتقادات لهن، انتهاء بحادثة فتاة «المول».

فقد نشرت الفتاة فيديو على موقع اليوتيوب، أحدث هزّة في المجتمع السعودي، وفيه تظهر بينما هي تستدعي الشرطة لرجال الهيئة، بعد مطالبتهم لها بمغادرة المجمع التجاري بسبب وضعها لطلاء الأظافر، وتعنفهم وتعاندهم. انتشر الفيديو كالنار في الهشيم، وشكّل صدمة في المجتمع الذي يتعامل بحذر مع الأنثى ومع المطاوع على حدّ سواء. ولكنه أثار النقاش حول ردّة فعل الفتاة العنيفة وطريقة تعاملها مع ذراع الردع في المملكة، وحول تجاوز المطاوعة لدورهم في ملاحظاتهم والتدابير التي حاولوا تطبيقها.

فهل تخلع السعودية ثوب الهيئة، وتعيد النظر في أجهزتها الموكلة الحفاظ على صورة نقية للمجتمع؟

أحمد دحمان

كاتب من السعودية

إياد القاضي alkadhi.com

مدن النساء

لن يستطيع العالم العربي أن يستوعب نساءه. لن يقدر على منحهن ما يطلبنه من حقوق. زلازل التغيير التّي أدّت إلى انهيار الأنظمة الديكتاتورية، لم تفلح في إحداث هزّةٍ بسيطة في العالم الذكوري الذي يجعل من كلّ امرأة عرضةً لأن تكون مشروع ضحية.

تهبط علينا الفضائح كزخّات المطر، لا نلحق على استيعاب الفضيحة حتّى تأتي أختها فتهزّ عالمنا النائم لبضع لحظاتٍ، لا يلبث بعدها أن يعود إلى سكونه: تزويج لاجئاتٍ سوريات في مخيماتٍ تقع على تخوم مختلف البلدان، في الأردن وليبيا وتركيا. تُستنفر حمية الرجال للستر على الفتيات الصغيرات الحزينات لترك بلادهن. تزوّج القاصرات السوريات بطريقةٍ لاإنسانية وجدت فيها العقول الذكورية خدمةً تقدمها للثورة السورية المشتعلة. في اليمن أيضاً، عرائس الموت باقيات رغم أنف جمعيات حقوق الإنسان، تقف وراءهن مؤسسةٌ دينية متحجرة المراس ورجال قبيلة يرون في الزواج من فتياتٍ صغيرات تجديداً لشبابٍ لن يعود يوماً وتثبيتاً لحقوقٍ مشروعة في البضاعة الأنثويةً منذ وجودهم على سطح الكوكب. في مصر، سقط النظام والعسكر ولم يسقط تحرّش الشارع بنسائه وفتياته المتجولات بين أزّقته. في الأردن وفلسطين، جرائم متلاحقة بحق الإناث.

في كلّ أصقاع العالم العربي شيءٌ واحد لا يتغير هو وضع النساء!! كأنّ هنالك قدراً محتوماً يرغب بإبقائنا موؤودات تحت رمال صحراء أو خلف ستار العادات والتقاليد، لا فرق.

هل نحتاج للذهاب لكوكبٍ آخر بعيدا عن كلّ أشكال القمع والتخلف والرداءة؟ ربّمًا حان الوقت لننفصل عن مدن الرجال ونصنع مدينة للنساء، لا يسيطر على تفاصيلها وعلى شكل الحياة فيها غير الأيادي الناعمة. حان الوقت لننفك عن العالم العربي الذكوري، إذ هو لم يقدر على منحنا أبسط ما نريد، أي جعلنا كائناتٍ مرئية لها وجودها الظاهر وليس مجرد متاع للبيع والشراء تحت عنوان الزواج.

هناك مدن صناعية خالصة للنساء ستبدأ تجربتها الأولى العام المقبل في السعودية، في منطقة الهفوف شرقي البلاد. الخطوة جاءت من قبل نساء أعمال سعوديات يرغبن في تعزيز الكادر النسائي في المملكة وتأهيله لمواكبة الأعمال الصناعية، فضلاً عن إيجاد فرص توظيفية لآلاف العاطلات عن العمل.

لكن مشروع المدن النسائية لا يتحقق لضمان حقوق النساء السعوديات بقدر ما هو تعزيزٌ لمبدأ الفصل التام الذي تتبعه الحكومة في تعاملها مع جناحي مجتمعها. مبدأٌ قد يعمّم على رقعة عالمنا إذا استمر الرجال على سلطتهم ونفوذهم القويّ في التحكّم بما يملكونه من حريم. المشروع خطّط وأقرّت موازنته ووضع موضع التنفيذ، وربّما لن تكتفي السعودية بمدنٍ صناعية تحشر بها النساء بعيدا عن عالم الرجال، ربّما بعد سنواتٍ قليلة ستظهر مدنٌ خاصّة للنساء فقط، تكون المرأة فيها حرّة داخل أسوار السجن الكبير الذي يقف الرجال على حدوده... متلصصين!

مريم ترحيني

كاتبة ومدونة لبنانية مقيمة في السعودية

العربي السفير

متابعات

١٠٠ أو ١٢٠ يوماً هي عدد أيام العمل لموظفي الدولة في العراق من أصل السنة كلها، بسبب كثرة العطل الرسمية التي يغلب عليها الطابع الديني. ويتسبب ذلك بخسائر مادية كبيرة للبلاد. وكانت لجنة الاقتصاد والاستثمار النيابية قد أوضحت أن العُطَل الرسمية والطارئة في العراق من أكثر المعرقِلات لعملية التنمية والازدهار الاقتصادي في البلاد.

الهجوم على شارع الكتب في بغداد

تنظيف شوارع أم «تنظيف» عقول؟

أكثر من أربعين عنصر أمن وموظفا مدنيا في أمانة بغداد (المحافظة أو الولاية)، حاصروا شارع المتنبي في صولة فرسان للقضاء على «كواتم» الكتاب وتفكيك «مفخخات» الثقافة. أربعون شخصاً مدجَّجون بإرث المغول وجرافات الحكومة، لإزاحة أكداس الكتب عن أرصفة شارع المتنبي التي قبض عليها متلبسة برفض الطائفية والمحاصصة، والاحتفاء بالوطن الواحد في وضح الثقافة.

جرفوا ديوان الشعر والرواية وكتب الفكر والنقد، كما تُجرف أنقاض معركة طاحنة. هكذا يصف أحد باعة الكتب مشاهد الغزوة التي قامت بها أمانة بغداد في ٢١ أيلول/سبتمبر على شارع المتنبي، الشارع الوحيد الذي حافظ على اهتمامه بالكتاب في بلد كان شعبه يعد الأكثر قراءة بين شعوب المنطقة.

تدمير الكتب بمواجهة «أنا عراقي، أنا أقرأ»

الأزمة الحقيقية أن تدمير بسطات شارع المتنبي من قبل أمانة بغداد، تزامن مع قرب موعد أكبر تظاهرة للقراءة في بغداد قام بالدعوة اليها وتنظيمها مجموعة من الشباب، بتمويل خاص وتبرعات من المثقفين: حملة «أنا عراقي.. أنا اقرأ». الشباب رأوا أن كلَّ شيءٍ في بلادهم يلبس السواد ويمضي نحو الفاجعة والتخلّف. وشتّان هنا بين هؤلاء الشباب الذين يحملون روحاً مدنيَّة للنهوض، وبين حكومة تود أن تقود الشباب نحو التخندق في انقسامات طاردة للثقافة.

قصَّةُ أمانة بغداد بدأت في الساعة الخامسة عصراً تماماً من ذلك اليوم المشؤوم، كما يروي أحد شهود العيان. إذ حطّت في شارع المتنبي، الذي يتفرَّع من شارع الرشيد، الاشهر وسط بغداد، تلك العناصر من قيادة عمليات بغداد وأمانة بغداد، وانقضوا على كل بسطات الكتب يحطمونها. لم تبلغ الأمانة أصحاب البسطات بتجاوزهم على الشارع، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال، ولم تتوانَ العناصر عن ضرب واحتجاز شاب لساعات عدّة، حاول أن يمنع العناصر من تحطيم البسطات وإتلاف الكتب، ولم يتوانَ منتسبو أمانة بغداد عن استخدام الجرافات لإنجاز «المهمة» بسرعة.

مفاهيم «الهيبة» و«الجمال»

مدير المكتب الإعلامي لأمانة بغداد شبه شارع المتنبي، المختص ببيع الكتب واللوحات والصور الفوتوغرافية والقرطاسية، بشارع الغَزْل، وهو السوق الذي تباع فيه الحيوانات الأليفة والبرية، بقوله «قمنا برفع المتجاوزين كافة في شارع المتنبي من أجل إعادة الهيبة له، مع تخصيص يوم واحد لأصحاب البسطات، وهو يوم الجمعة، ليمارسوا عملهم ببيع الكتب، وسيكون الوضع مثل «سوق الغزل»، بتوفير الوضع اللازم وتأمين المنطقة في كل نهاية أسبوع».

إلا أن حجج الأمانة في إزالة البسطات من شارع المتنبي واهية، لا سيما وأن بيانها يقول «الحملة شملت رفع الاكشاك ومواقع بيع المأكولات ومعروضات الكتب والمطبوعات على الارصفة». باعة الكتب في شارع المتنبي لا يبنون أكشاكاً، بل يرفعون الكتب عن الأرض بضعة سنتمترات، بواسطة ألواح خشبية، كي لا تتعرَّض إلى التلف والرطوبة والغبار. وربما كان رواد شارع المتنبي أكثر الناس معاناة من عدم وجود أكشاك الطعام فيه، إذ لا يتوفَّر فيه إلا مقهى «الشابندر» (الشهير) الذي يقع في آخر شارع المتنبي، مقابل سوق السراي، والذي لا يتوفَّر فيه إلا الشاي والماء المعلَّب. وما على المتواجد في شارع المتنبي، إذا ما حلَّ عليه الجوع ضيفاً ثقيلاً، إلا الذهاب إلى شارع الرشيد ليجد مطعماً صغيراً.

وصف أحد الكتّاب أمانة بغداد بـ«هولاكو» العراق الجديد الطارد للثقافة، والذي يعبر نهر دجلة على أشلاء الكتب، خاصّة وأن على ضفة كرخ نهر دجلة المقابلة لضفة الرصافة، حيث يتمدد شارع المتنبي، قصور حكم العباسيين في ما مضى، والقصور الرئاسية لصدام حسين، وهي الآن قصور حكَّام العراق الجدد حيث أُقيمت «المنطقة الخضراء».

سارع أمين بغداد، بعد الحادثة بيوم واحد، وبعد أن اشتدَّ الهجوم على «أمانته» من قبل الصحافة والأدباء، لتبرئة نفسه بالإيعاز «بتشكيل لجنة تحقيقية في ملابسات رفع التجاوزات في شارع المتنبي». لكن باطن الإيعاز ليس كظاهره، حيث يضيف بيانه أن «امانة بغداد (..) تحرص على ازالة جميع التجاوزات الصارخة التي تؤدي إلى الإضرار بالممتلكات وتعيق حركة المركبات والسابلة وتشوه منظر وجمالية هذه الأماكن».

وهنا، لا بدَّ من تفنيد أمر آخر: بعد أن تعرَّض شارع المتنبي عام ٢٠٠٧ إلى عمل إرهابي أدى إلى تدمير الشارع وحصد أرواح ٣٠ شخصاً وإيقاع ٦٥ جريحاً، قامت حينها أمانة بغداد، بمساعدة منظّمات أهليَّة، بترميمه، فمنعت مذاك دخول المركبات إليه، فهو شارع مشاة فحسب، وهذا ما يبطل حجَّة أمانة بغداد وأمينها، حول سبب القيام بالحملة.

عمر الجفَّال

شاعر وصحافي من العراق

العراقيون يقرأون

بجهود فرديَّة، أسس شباب عراقيون حملة «أنا عراقي.. أنا اقرأ»، بعدما تمكن الفقر والقتل من الاطاحة بمستوى القراءة في العراق، وهي كانت الرياضة الوطنية الاولى. فتح هؤلاء الشباب الصناديق أمام الناس للتبرّع بالكتب في شارع المتنبي، وفي مناطق متفرِّقة من بغداد.

مبادرة الشباب النبيلة لم تنجُ من فساد المسؤولين في الدولة، فقد حاول أحد أعضاء مجلس النوَّاب سرقتها حين أعلن عن حملة مشابهة لها! لكن حملته سرعان ما انطفأت من تلقاء نفسها. أما وكيل وزير الثقافة، فقد أصدر بياناً قال فيه أن وزارته دعمت الحملة بـ ١٤ مليون دينار، ما يعادل ١٢ ألف دولار تقريباً. لكن المنظِّمين سارعوا إلى تكذيب البيان، وقالوا أنهم رفضوا المبلغ بسبب إملاءات الوزارة التي لا تنسجم مع أهداف الحملة. وهكذا باءت بالفشل محاولات السلطة، عبر بعض رموزها، مصادرة الفكرة أو السيطرة عليها، بينما بعض السلطة الآخر ينقض على الثقافة عبر رمزية شارع المتنبي. حملة «أنا عراقي.. أنا اقرأ» انطلقت بأكبر تجمع للقراءة في حدائق شارع أبي نواس وسط بغداد، يوم ٢٩ أيلول/سبتمبر... بينما المؤسسات الحكومية تقوم بتقديم التبرير تلو الآخر لجرف أكبر شارع للثقافة في بغداد، وهي كلها تشبه العذر الاقبح من الذنب.

أساس حملة «أنا عراقي.. أنا أقرأ»، هو نفسه أساس الاستهجان الكبير الذي واجه به العراقيون مجزرة شارع الكتب: مناهضة مسار توزيع العراق الى طوائف ومذاهب وجهات تتواجه بعصابية تافهة، مآلها الوحيد هو التدمير الذاتي، مستكملة بذلك التدمير الممنهج الذي وقع على العراق من الخارج. فهذه الوضعية التي يسعى الى تسييدها، تطمس خاصية العراق الأساسية، التي صمدت رغم عقود من الديكتاتورية الفظيعة، ورغم الحروب الطاحنة المتتالية، ورغم الحصار القاتل، ثم الاحتلال المباشر لجحافل «الدولة العظمى الوحيدة على الارض»، والهندسة التي سعت الى تطبيقها على العراق بكل ما اوتيت به من قوة. وها هي تصمد اليوم رغم المرور بزمن الابتذال. فقد امتلك هذا المكان على الدوام نواة منصهرة، قلباً واحداً أو عموداً فقرياً ـ لا فرق ـ تَشكَّل حول النهرين العظيمين ونظامهما الزراعي المدهش وشديد التعقيد، مهد الحضارة الإنسانية، الذي طرح شرائع حمورابي من بين سواها، لتنظيم الاجتماع البشري ومنحه مرجعيات قيمية، كما طرح أسطورة جلجامش كواحدة من أسس الفلسفة حتى اليوم.

حلم ..

حسن مسعودي/العراق

arabi.assafir.com

اقرأوا على موقع «السفير العربي»:
هل تتمنين لو كنتِ موريتانية؟ـ عليّة عباس
تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي ـ Assafir Arabi
وعلى «تويتر» @ArabiAssafir
نستقبل مساهماتكم وتعليقاتكم واقتراحاتكم... فراسلونا

.. بألف كلمة

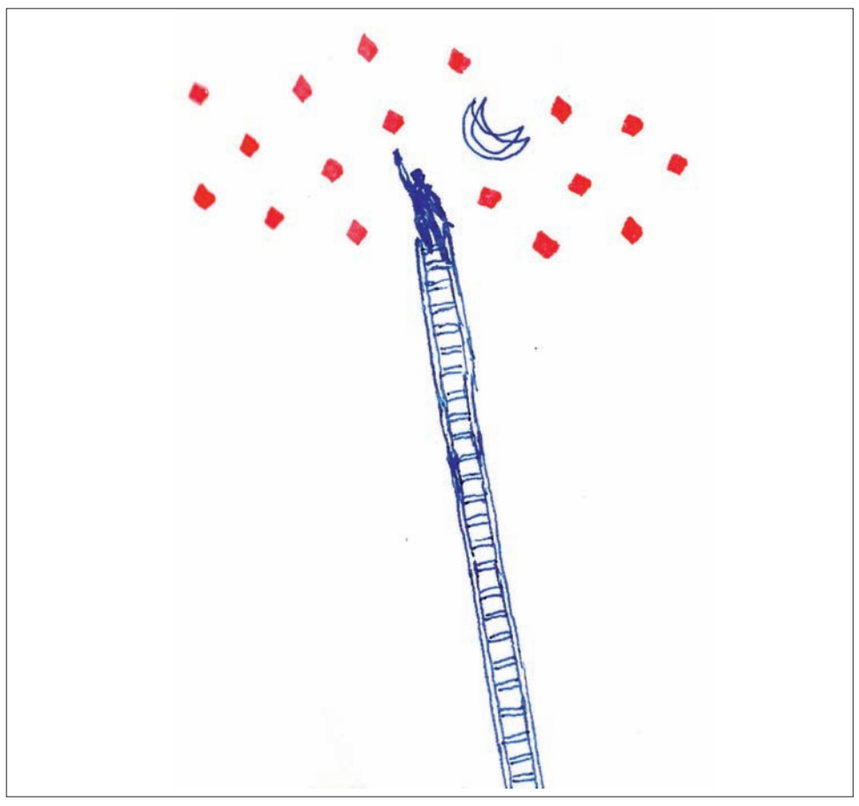

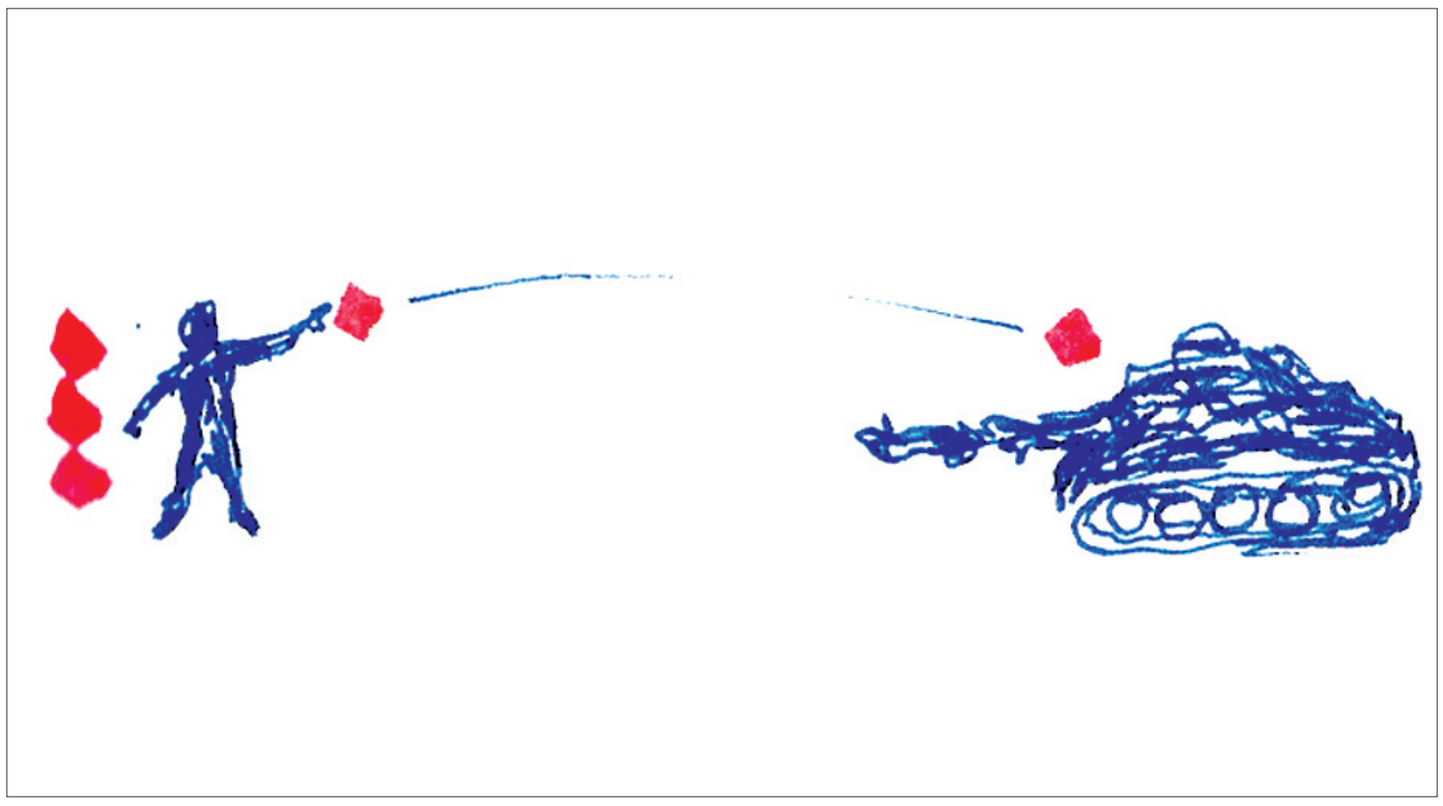

رسم جنى طرابلسي ayloul.blogspot.com

مدونات

حكايا الأرق

منذ أسابيع قليلة، بات لكلّ من يعاني من داء الأرق مساحته الخاصّة. يمكنك وأنت تتقلّب، محاولاً أن تغفو، التوجّه نحو مدونة «حكايا الأرق» ومراسلتها بنصّ يعبّر عنك. ما يشترطه القيّمون هو فقط أن تكون «صادقاً، مختصراً وحرّاً». لست مجبراً على الكتابة باسمك الحقيقي. بل يمكنك اختيار الاسم المستعار الذي ترغب به. في إطار تعريف مدونة «حكايا الأرق» عن نفسها تقول «هو تجمع على الانترنت ومحور فني خلاق يمكّن الأرقين في هذا العالم من مشاركة قصص آخر الليل من خلال إرسال بريد إلكتروني». تستقبل المدونة زوارها بألوان رمادية، أشبه بحالات القلق والاضطراب المرافقة للباحثين عن النعاس ليلاً. أمّا مضمون التدوينات، فتختصره هذه العبارة «يمكن لقصتك أن تكون مشاعرك العميقة، اعتراف، سر، طقوس آخر الليل، أي شيء يمكن أن تحسه أو تختبره عندما لا تستطيع النوم في الليل وتود أن تشاركه». من هنا حلّ الضيوف على المدونة، فباتوا من أهل البيت. يحكون عن حالاتهم وعمّا يشعرون. يعبّرون بكلمات سريعة عمّا يشعرون وبما يفكّرون، خلال لياليهم الطويلة. البعض يختار الكتابة بالانجليزية، والرواد باتوا كثرة تلفت النظر:

تعاقب كثيرون على الكتابة في المدونة، ولصغر المساحة نكتفي بعرض نصين. ومن الممكن متابعة المدونة أو مراسلتها عبر هذا الرابط.

http://www.insomniastories.com/

حكاية أولى: أبواب الحياة في غرفتي

على عكس وقوفي أمام باب العتمة. أخرجت رجلي مسرعاً. تغيرت الحرارة بالرغم من أن السماء لم تكن مشمسة. هكذا أحسست أيضا عندما دخلت العتمة. أحسست بالبرودة. هل للعتمة حرارة وللضوء حرارة ؟

ضحكات الأولاد كانت صاخبة. يتقاذفون الكرة بشكل فوضوي. الغبار يملأ المكان. تنسحب الغيمة التي غطت الشمس. ترتفع درجات الحرارة بعض الشيء. أسمع أصوات انفجارات. انظر إلى الأطفال، يكملون لعبهم. لا يأبهون لهذه الأصوات التي تصرع أذني. ارتسم ظل طائرة وسط الملعب.

ثوان وسقطت قذيفة خلف الأطفال. لم يتوقفوا. لا يزالون يكملون لعبهم. صعقني المشهد. كيف للاطفال الذين يبكون بمجرد سماع صوت قوي أن لا يبكوا أو يخافوا من انفجار قذيفةٍ لحظة ارتطامها في الأرض؟ كيف لي أنا ان أخاف من هذا الصوت وأشعر برعشة الموت وحبّ الحياة وهم لا يعيرون هذا الانفجار انتباهاً؟ ماذا لو سقطت هذه القذيفة في ملعبهم؟ هل سيتقاذفونها أم سيموتون؟ أتراهم يلعبون بأعمارهم الملفوفة على شكل كرة؟

قاماتهم متشابهة، إلا أن احدهم كان الأكثر نصاحة، كان يقف على حراسة المرمى، لا أدري لماذا هذا الانطباع عند جميع الأجيال، إن الناصح لا يصلح سوى لحراسة المرمى .

http://goo.gl/KRjYR

سليم اللوزي

حكاية ثانية: احتقان

مهما حاول الإنسان التفكير بنفسه فإنه لن ينجح في ذلك باليقظة! هذا ما توصلت إليه سمارة التي لم تنم اليوم بعد .الأفكار التي راودتها كثيرة اكبر من أن تستودعها في كتاب... كانت تستطيع أن تفعل أفضل مما يسمى «النوم». أحست أنها قادرة على الجري آلاف الأمتار والوصول إلى شواطئ غير موجودة إلا في الكتب الخيالية. فكّرت في السماء.. في زرقتها وغيومها.. فكرت بالعقل بالشجرة بالمخلوقات... لديها طاقة ضخمة. شعرت بذلك، لمسته بيديها، حركت يديها وأصابعها ورسمت دائرة على بطنها.. إنه منبع الطاقة التي تنفجر لتنشأ الأكوان، إنه الانفجار الأول الذي يتحدث عنه العلم. هل عليها أن تبقى في فراشها؟ معتقلة وسط أوهام وفلسفات عتيقة وتقاليد وأفكار قطيعية. لم تكن مجبرة على ذلك، لكن الفجر الذي بدأ بالانبثاق ذكرها بإنسانيتها، بأبسط حقوقها، بوجودية كينونتها! هل هي مادة كالخشب أو الحديد حاولت ربط حياتها بانبثاق الفجر، هل يستحق البشري هذا التجلي اليومي لحياته المكررة عبر كل يوم؟

هل يستحق الإنسان؟ إنها تعرف أن الفجر ينبثق والشمس تشرق من أجل من يستحقون، لكن المجتمع الذي يداوي الشمس بالظلام والظلام بالنوم والحرية بالقيود لا يستحق...

http://goo.gl/WZ949

كنان القرحالي